الفصل الثالث

أثر الابتعاد عن الفلسفة على العقلية العربية وعلاقتها بالدين

منذ وجد الكائن البشرى فى هذا الكون؛ صار وجوده فى غايته وفى بدايته ونهايته؛ ومكان وجوده فى أبعادة وإدراكه وطبيعة تشغيله لملكة الإدراك عنده؛ وزاحمين فكره بالمساءلة والاستشكال؛ ومن المرجح أنه ما عقل مهما كانت مكانته من الصعود أو الهبوط فى سلم الإدراك من هواجس تخطر له فى هذا المجال؛ وكلما قويت ملكة الإدراك لدى الفرد ازداد انشغاله بهذه الخواطر لازدياد الإلحاح المتسائل؛ على تفاديها؛ لأنها مما تقتضيها طبيعته؛ على أنه فى أغلب حالاته ـ إن لم يكن فى كل حالاته ـ غير قادر على الإجابة عليها؛ وهكذا يجد نفسه واقعًا فى هذا المأزق الذى لاذنب له فى الوقوع فيه، ومع ذلك التاريخ الطويل من السير المضنى فى هذا الطريق لكى يجد إضاءة تنبثق من مشكلة فإنه لم يمل السير كما يقول الدكتور راشد المبارك فى كتابه (شموخ الفلسفة)؛ ولم يزهد فى المحاولة؛ على أن ملازمته للمحاولة لا تخلو من دلالة على مشروعية هذا النشاط الذى يكون ماهيته؛ ومع أن الإيمان بالله والركون إلى هدايته يملآن قلب المؤمن بالضياء والطمأنينة، إلا أن ذلك لا يمنع عقله من العمل ولا يلجم تفكيره عن الارتياد؛ وذلك ما جعل خليل الله إبراهيم يقول: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾؛ وليس ذلك بمعزل عن الداعى الذى دعا أبا الوليد ابن رشد إلى وضع مختصره (فصل المقال)؛ ودعا العلَّامة ابن تيمية إلى وضع مطولة (درء التعارض بين العقل والنقل) إن من اللافت للنظر أنه مع كون سعي العقل الطويل في هذا الطريق لم يؤد إلا إلى إزاحة القليل من هذا الستر وهو المتعلق بمجال التجربة أو ما جاء نتيجة لومضة من ومضات العقل، كما حدث ويحدث في مجال الرياضيات والفيزياء والعلوم الطبيعية الأخرى، مما حمل طائفة من البشر على الدعوة إلى الكف عن بذل مزيد من الجهد في هذه الطريق لكثافة الحجب، فإن هذا الإخفاق وهذه الدعوة لم تنجح في إخفاء أو إضعاف ذلك التوهج الفطري لدى الإنسان الذي ما انفك يتوق إلى هذه الغاية، وكأن هاجسًا يهتف به أن لا يمنعك طول الطريق وكثافة الحجب عن مواصلة المسير، وهو إلحاح ليس مبتوت الصلة بقول

الله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ عرفت الطائفة التي شغلت بالتفكير في هذا الهاجس والانشغال به والانصراف إليه أكثر من سواها باسم الفلاسفة، وعرف مجال بحثهم باسم الفلسفة، والفلسفة عبارة يونانية مؤلفة من الكلمتين فيلو ـ سوفيا (philosophy)، وتعني طلب الحكمة أوطلب المعرفة، فهى دعوة للعقل للقيام بعمله، إنها استنهاض له لمزاولة وظائفه من التفكير في ذاته وما يحيط به من مظاهر الكون وظواهره، مما جعل الله قرينًا بذكره والألصق بصفات المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾، ومن المعلوم أن الحكم على شيء بالصحة أو البطلان لا يكون إلا بعد معرفته، وقد عرفها «أرسطو» بأنها «تعريف المبادئ»، واختار لها بعض الفلاسفة المحدثين مثل تولوز اسم «إبداع المفاهيم».

إن الفلسفة لم تفارق مسلكها القديم، وهو اعتمادها في الوصول إلى المعرفة على وسيلة واحدة من وسائل الكشف عنها، وهو التأمل المحض القائم على المسلمات الأولى للعقل، والمعطيات الحسية ليست سوى مادة يختار منها العقل اللَّبنات الملائمة لبنائه، إن أحدهم يتراءى له تصور أو رأى أو وهم فيتحول بين يديه إلى اكتشاف كونى يعطيه جزءًا من الحقيقة التى يبحث وراءها كل فيلسوف أو مفكر أو باحث عن الحقيقة. إن طبيعة الفلسفة توجب على الفيلسوف أن يكون (السالك) فى طريق المعرفة الذى لايكف عن المسير. لقد جعل الله الإيمان بالغيب من أظهر صفات المؤمنين به؛ ولكن هذا لا يعنى أن هناك أستارًا لن ترفع؛ وهذا ما يبقى العقل مشغولًا بوظيفته لا يكف عن بحثه على طرق السالكين والباحثين عن المعرفة والحقيقة؛ ولو كشفت الحجب لانقطع ذلك المدد الباعث على الحركة والقلق ومصدر الكشف والإبداع؛ وهذا ما يدعونا إلى مناقشة شيقة عن الفلسفة وأثرها فى تطوير العقلية العربية فى هذا الفصل.

الفلسفة ظاهرة إنسانية

إن التفكير الفلسفى ليس كما يتصور البعض احتكارًا للفلاسفة أو المشتغلين بالفلسفة؛ إذ أن الإنسان كإنسان يتميز عن غيره من الكائنات بعقل وهبه الله إياه ليفكر به؛ والتفلسف ليس شيئًا آخر غير استخدام هذا العقل؛ فالحيوان يرى ويسمع بل ويتذكر؛ ولكنه لايستخدم هذه القوى إلا فى حاجاته الوقتية، له فيها رأى ثم يجتهد فى تعرف عللها وعلاقة حقائق الكون

بظواهره وهذا طريق فهم الشيء فهمًا واضحًا؛ فإن فعل هذا قلنا إنه يتفلسف، وعلى ذلك فإنه لا يوجد ـ فى الغالب ـ إنسان لا يتفلسف أو على الأقل فإن لكل منا فى حياته لحظات يكون فيها فيلسوفًا ينظر ويتأمل ويحاول الوصول إلى أعماق الأمور.

وليست الفلسفة إلا نتاجًا للنظرة الفاحصة للعقل البشرى إلى هذا الوجود؛ ومحاولة لحل ألغاز الحياة المتمثلة فى الأسئلة التالية: من نحن؟ وإلى أين نذهب؟ وما أحسن سبيل للوصول إلى هذا المصير؟ والعقل قبس من نور الله؛ أوكما يقول الإمام الغزالى: «أنموذج من نور الله». ويحاول العقل أن يكشف بهذا النور مجاهل الوجود وشعابه فيتتبع الموجودات، ويحاول أن يدرك ماهياتها وشكلها مرتقيًا من علَّة إلى علَّة حتى يصل إلى الغاية القصوى التى هى العلة الأولى والتى كل شيء بها ومن أجلها. ثم يعود هذا العقل مرة أخرى إلى تأمل هذا الكون ناظرًا فيه من جديد ومكونًا لنفسه صورة واضحة عنه ومفسرًا كيفية انسجام الأشياء فى ذاته وفيما حوله ثم هو خارج عن ذاته. ومن ذلك يتضح لنا أنه على الرغم من نفور جمهور الناس من التفلسف وتشكيكهم فى جدية الفلسفة وقيمتها ومحاولتهم حذف الإنسان العربى عن البحث فى قضاياها الكبرى ـ بالرغم من هذا كله فإننا جميعًا من عامتنا إلى خاصتنا نتفلسف؛ بدرجات متفاوتة؛ وإن كان البعض منا لا يريد أن يسلم بأنه يتفلسف، كما يقول الدكتور محمود حمدى زقزوق فى كتابه «تمهيد للفلسفة». فالفلسفة فى واقع الأمر ليست بالشيء الدخيل على الإنسان؛ فحياته حلقات متصلة من الفكر والتأمل، وهكذا نجد أن الفلسفة ليست نبتًا غير طبيعى فى المجتمع، وإنما هى ظاهرة إنسانية ملازمة لوجود الإنسان؛ ولأن هذه الظاهرة من الحياة طالما كان هناك إنسان فى هذا الوجود.

فالفلسفة بالنسبة للإنسان أمر لا مفر منه؛ فهى ماثلة فى مجتمع الناس؛ فى الأمثال المأثورة؛ وفى الصيغ الفلسفية الجارية؛ وفى الاقتناعات السائدة؛ وفى التصورات السياسية، وبوجه خاص فى الأساطير منذ بداية التاريخ. فالذين يحاربون الفلسفة من جهلاء هذا الزمان ابتلى بهم العقل العربى؛ ويحاولون هدمها والقضاء عليها يصنعون عبثًا؛ ومحاولتهم مقضى عليها بالفشل. ومن ناحية أخرى فإن محاولتهم هذه بالرغم من أنها موجهه ضد الفلسفة؛ هى أيضًا نوع من التفلسف تثبت الفلسفة بدلًا من أن تقضى عليها. فالذى يرفض الفلسفة أو يذكرها هو فى حقيقة الأمر مفلسف لأنه لا ينطلق من فراغ؛ وإنما هو يحاول أن يجد له أرضًا صلبة يقف عليها، ويطلق منها سهامه إلى الفلسفة؛ أى أنه يحاول بناء وجهة نظر مضادة يجتهد فى أن تكون منطقية ومتينة ومستندة إلى أسس قوية، وهكذا يعنى فى النهاية أنه يتفلسف. وقد

قال أرسطو ذات مرة إن الذى يرفض الفلسفة يتحتم عليه أن يتفلسف، والسؤال المطروح هو فقط ما إذا كنا على وعى بالفلسفة أم لا؛ وما إذا كانت الفلسفة جيدة أو رديئة؛ مبهمة أو واضحة؛ الذى يرفض الفلسفة يمارس هو نفسه الفلسفة دون أن يكون على وعى بذلك، وليست الفلسفة مجرد دراسات نظرية منعزلة عن حياة الناس اليومية بعيدة عن التأثر فيها؛ وإنما «هى نظرة إجمالية فى الكون؛ واتجاه فكرى عام نحو الحياة فى مجموعها؛ وهذه النظرة، وهذا الاتجاه الفطرى يؤثر بطبيعة الحال فى تصرفاتنا اليومية، وفى معالجتنا للحوادث التى تمر بنا؛ بمقتضاها نسير فى عملنا؛ ونواجه النظم الطبيعية والاجتماعية التى تحيط بنا وتحدد ميولنا نحوها؛ وتصرفاتنا تجاهها، وإذا قلنا إن كل إنسان يتفلسف فليس معنى ذلك أن كل الناس فلاسفة بالمعنى الاصطلاحى. فالفيلسوف ليس هو ذلك الشخص الذى يبدأ فقط بالتفلسف وإنما هو الذى يستمر فى مواصلة التفلسف حتى النهاية. وإذا كان من المسلَّم به أن كل موجود عاقل يفكر؛ فإن الأمر الذى لاينبغى أن يغيب عن الأذهان هو أن الطريقة التى يمارس بها المرء هذا التفكير فى حياته العملية؛ يوجه خاص المدى الذى يصل إليه هذا التفكير؛ شىء مختلف تمامًا عما يحدث فى الفلسفة، فالفيلسوف لا يكتفى بدرجة التفكير التى يمارسها المرء فى حياته العملية وحاجاته الوقتية؛ ولكنه يفحص نتائج الفكر العادى أمرًا تقريبيًا معتقدًا؛ ولذلك تكون قابلة للشك.

مراتب الفكر الفلسفي التي يمر بها العقل

ومن هنا يمكننا أن نقسم مراتب الفكر عند البشر إلى ثلاث مراتب:

١ ـ المرتبة الأولى

هي مرتبة الفكر العادي التي تتمثل أو تنحصر في انصراف الفرد إلى تدبير أمور حياته العملية ومعالجة مشكلاته اليومية الجارية، أمور معاشه ومعاملاته وعلاقاته مع الناس.

والإنسان في العادة لا يقف عند هذه المرتبة من الفكر العادي، وإنما يسلمه بالضرورة إلى المرتبة التالية الثانية.

٢ ـ المرتبة الثانية

وهي ما يمكن أن تسمى بالفلسفة الخاصة التي تمثل مجموعة المبادئ والمعتقدات التي ينظر من خلالها الفرد إلى الحياة والأشياء، والتي تمثل أيضًا القواعد التي يعتمدها في سلوكه

وتعامله مع الآخرين، وفي تقييمه أو حكمه على الناس والأشياء، وتقنع الغالبية العظمى من الناس بالوقوف عند هذه الدرجة، ولكن هناك مرتبة ثالثة من التفكير تتعدى هذا النطاق وهي المرتبة الثالثة

٣ ـ المرتبة الثالثة

هذه هي المرتبة المتقدمة من الفكر الإنساني وهي التي يحاول فيها الفرد البحث عن تأصيل نظري لهذه المبادئ والمعتقدات قصد الوصول إلى أسس ومقومات نظرية تدعمها، وفي هذه المرتبة فقط من الفكر يصبح الإنسان باحثًا في علم الفلسفة والحقيقة.

وللأسف، فقد تم تقييد فكر الإنسان العربي في سياق المرتبة الأولى فقط، وذلك في غالبية أفراد المجتمع العربي، فقد أصبح همهم الشاغل هو الفكر اليومي العادي والذي ينحصر كما قلنا في تدبير أمور حياته العلمية ومعالجة مشكلاته اليومية الجارية والاكتفاء بذلك القدر الضئيل من الفكر والذي يتشابه مع طريقة الفكر البدائي لإنسان العصور السحيقة، وهذا يُعد من أحد أهم أسباب تخلف الحضارة والفكر العربي والإسلامي منذ عصر ابن رشد وابن حزم، وكبار المفكرين العرب والمسلمين والعظام حتى عصرنا هذا.

ـ فوائد تطبيق الفكر الفلسفي على العقلية الإنسانية

تتميز النظرة الفلسفية التي تعبر عن موقف يتخذه المفكر والفيلسوف، كما ذكر الكاتب الدكتور يحيى هويدي في كتابة «مقدمة في الفلسفة العامة»، من المشكلات الفلسفية والفكرية المطروحة على بساط البحث بخصائص ومميزات تجد لها نظيرا في التفكير العادي، ففكر الإنسان المفكر الفيلسوف يتسم بالطابع الكلي ونظرته إلى الأمور نظرة شاملة لا تقنع بجزئيات الأشياء أو تبقى على سطحها، وإنما هي نظرة متيقظة ترى مالا يراه الفكر العادي، وتنفذ إلى الأعماق مستخدمه التأمل الفاحص في البحث عن حقائق الأشياء متقدمة على أفق المعرفة الواسع، لا تضيق بالنقد ولا تحجر علي ذكر الآخرين (وهي سمات سلبية متأصلة في المجتمع العربي بكافة طوائفه وشعابه) هذا في حين أن الفكر العادي علي النقيض من ذلك صاحب نظرة جزئية ضيقة تقنع بظواهر الأشياء، وتعوقه ضوضاء الحياة اليومية ومطالبها الوقتية عن الالتفاف إلى حقائق الأشياء، وعن التيقظ الباعث علي النقد، وليس لديه استعداد للتفتح على ما عند الآخرين من أفكار، وهذا هو بيت القصيد، فالفكر العربي قد أصبح محصورًا في نطاق ضيق من المجال الفكري الاعتيادي السطحي اليومي، والذي لا يسمح بالمرة للنقد الذاتي أو العام؛ مما أصاب هذا العقل بالوهن والتبلد والتدهور.

إن الإنسان المفكر (الفيلسوف) لكي يصل إلى هدفه المنشود في الوصول إلى حقيقة الأشياء والحياة من حوله، لابد له على طريق التفلسف من تركيز وامتلاء فكري، يبتعد فيه عن الحياة اليومية العادية، لكي يستطيع أن يتمثل العالم الخارجي في ذهنه مضيفًا عليه نظرة كلية يعود بعدها مرة أخري إلى هذا العالم يصوغه من جديد، وفقًا لما توصل إليه من نظرة كلية شاملة، ونظرًا إلى أن الفيلسوف في حاجة ضرورية إلى هذا الإبتعاد عن الحياة اليومية الجارية، فإنه يبدو في نظر البعض منعزلًا عن الحياة، ولكن هذا الانعزال الذي يراه البعض في موقف الفيلسوف ليس في الواقع انعزالًا حقيقيًّا، وانما هذا الإنسان المفكر الذي ينشد الوضوح لابد له ـ لكي تتجرد نظرته من شوائب الماردة وعلائقها من ممارسة التفكر والتفلسف في جو بعيد عن صخب الحياة وضوضائها.

إن الإنسان المفكر الفيلسوف ليس هو فقط، الذي يكون في أشد الحاجة إلى ذلك، وإنما كل فرد منا حين يحاول التغلب على مشكلة من المشكلات، وكذلك الطالب حين يستذكر دروسه لابد له أيضًا من فرصة يتوفر له فيها الصفاء الذهني حتى يمكنه أن يتغلب على ما يواجهه من مشكلات. وهكذا نجد أن الانسان المفكر الفيلسوف ـ الذي لا يهتم كثيرًا بجزيئات المسائل، وإنما يفكر في أمور كلية يغوص إلى أعماقها لكي يتبين جذورها ـ لابد له من هذه «العزلة «المؤقته التي ليست أبدًا هدفًا في ذاتها، وإنما هي فقط مجرد وسيلة يستعين بها الفيلسوف على أداء واجبة وبلوغ هدفه من التفلسف، واذا طالبت الإنسان بصفة عامة والعربى بصفة خاصة باستخدام عقله وإعماله فى أعمال التفكر العميقة، وليس فقط التفكير اليومى السطحى فى أموره اليومية؛ فإننى لاأطالبه بالاعتزال عن الحياة؛ بل إنه يتحتم عليه عندما يصل إلى الوضوح الفكرى المطلوب والصفاء الذهنى والذى يقربه من حقائق الأمور أن يعود مرة أخرى إلى خضم الحياة محاولًا صياغتها صياغة جديدة (التجديد والتطوير الفكرى المنشود) بإلقاء الضوء على طريق الحياة لكى يهدى الحائرين من حوله. وهذا هو موقف الفيلسوف المفكر الحق. فلم يكن أفلاطون مثلًا بكتاباته يريد شيئًا أكثر من صياغة الحياة صياغة جديدة حتى تسود فيها العدالة ويحيط بها السلام. وقد حاول أن يضع أفكاره موضع التطبيق، وينقلها من عالم الفكر إلى عالم الواقع لتكون حية تعيش الناس بها ومعها؛ وإن كان لم يفلح فى هذا الأمر فليس معنى ذلك أن كل أفكاره كانت باطلة؛ وإنما يرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى اصطدام فكر الفيلسوف (الذى هو فكر ذو طابع كلى) بالفكر الجزئى السائد فى عالم الواقع الذى لايريد أن يتزحزح قيد أنملة عن مألوفاته فى عالمه الضيق. وقد صور أفلاطون ذلك أبلغ تصوير فى أسطورة الكهف

المشهورة، إن البحث فى القضايا الفكرية الكبرى الخاصة بأى مجتمع إنسانى ليس أمرًا مفروضًا على الإنسان من الخارج؛ وإنما هونابع من طبعية تكوين العقل البشرى ذاته؛ ولن نستطيع حتى إذا أردنا ـ أن نكف العقل عنه؛ لأننا إن فعلنا ذلك نكون كمن يكلف الأشياء ضد طبيعتها؛ وكمن يحاول أن يمنع الحياة من الحركة والنشاط. يقول الفيلسوف «كانت KAUNT» فى مقدمة كتابه المهم «نقد العقد الخالص»: (إن للعقل الإنسانى قدرًا غريبًا فى ضرب من ضروب معارفه من حيث إنه مثقل بمسائل لا يستطيع أن يتفادها؛ لأنها موطاة له فى طبيعة العقل ذاته؛ ولكنه لا يستطيع أيضًا أن يجيب عنها لأنها تتجاوز كل قدرة العقل الإنسانى. وإذا كان الأمر هو أن الرغبة فى المعرفة والاهتمام بالمسائل الكبرى ـ التى تتجاوز أحيانًا حدود الطاقة البشرية ـ من طبيعة العقل البشرى لا تنفك عنه؛ فإن هناك من الدوافع مايحرك هذه الرغبة؛ ويعمل على إثارة غريزة التفلسف الكامنة لدى كل إنسان.

أثر الفلسفة فى المجتمع الإنسانى

لقد كان للفلسفة منذ القدم أثر عظيم فى تطور حياة البشروتقدمهم، وباستقراء الكثير من النهضات الاجتماعية والعلمية المتتالية، نجد أن الفلسفة قد قامت بدور التوجيه المستنير الذى ساعده على النهوض والتقدم فى الأسرة الإنسانية، وبهذا كان للفلسفة بجانب قيامها بتفسير الحقائق وتعليلها دور الدفع نحو الكمال والرقى. هى إذًا ذات أثر فعال فى تاريخ الحضارة بغيرها لاتكون حضارة إنسانية، ولقد سارت الفلسفة جنبًا إلى جنب مع الحضارة الإنسانية تضيء لها الطريق وترسم الأهداف والخطوط، من هنا كان للفلسفة أثرها فى خدمة الإنسانية وتطورها نحو حياة أفضل ومستقبل أفضل، لقد أساء بعض المفكرين من رجال الدين والفقهاء الظن بالفلسفة ونسبوا إليها العقم وقلة الجدوى؛ فقالوا إن العلوم تمدنا كل يوم بالمخترعات؛ وتزودنا بما تكتشفه من خبايا كان لها أثرها الفعال فيما وصلت إليه الإنسانية من تقدم ملموس؛ أما الفلسفة فهى جدباء قاحلة لم نجن منها بعد طول الجدل وضياع الوقت ـ إلا الشكوك والأوهام ـ ولكن هؤلاء قد تجنوا على الفلسفة ونسبوا إليها ما ليس من طباعها ـ كما تجنى الآخرون على العلم ونسبوا إليه ما ليس من طباعه؛ وذلك يعد أثر الفلسفة وجهودها فى تطوير الحياة الإنسانية؛ حيث شرف الله الإنسان على سائر المخلوقات بعقله يستطيع أن يفكر ويتخيل أكثر من المعقول؛ حيث لا يستطيع أبدًا أن يعيش بعيدًا عن حياة الفكر مغفلًا جانب العقل والروح؛ لا يعرف من الدنيا إلا ملء معدته وسد الضرورى من مطالب حياته، لقد وجد الإنسان فى هذه الحياة، وحل فى هذا العالم بدون إرادته فلا أقل من أن يتفعل هذا الوجود

الذى يحتويه؛ وأن يتفهم نفسه، وأن يحدد مكانه منه، وأن يرسم غايته من حياته؛ ولا يمكن أن يتم له هذا بغير فلسفة تساعدة على تكوينها دراساته للمذاهب الفلسفية التى وضعها أهلها حلًا لمشكلات الوجود ومعضلات الحياه الإنسانية.

أثر تغييب الفلسفة عن العقل العربى والإنسانى

لطالما استوقفنى سؤال، يتعلق بسبب إبعاد الفلسفة عن مناهج التعليم العام والعالى فى معظم الدول العربية والإسلامية؛ بل وإبعادها عن حياتنا اليومية؛ ولم أكن مقتنعًا قط بما يقال فى بعض الأحيان من بعض رجال الدين من أن الفلسفة تتعارض مع الشريعة أو مع عموم الدين الإسلامى، ذلك أننى أعد الفلسفة كما سبق أن أوضحت حقل من حقول التفكير المنطقى. وهى تسعى إلى فهم فحوى مضى الوجود والواقع من خلال آليات زرعها الخالق فى خلقه؛ مثل التفكير والتأمل والقياس والتجربة وغيرها كثير.

والفلسفة على تبنى موقف يتصادم مع الثوابت الناموسية؛ وهى تسعى جاهدة للكشف عن ماهية الحقيقة والمعرفة؛ ذلك أن الفطرة السليمة التى فطر الخالق عليها خلقه تتسق مع الرسالات النبوية، وهذا كله مناط التشريع السماوى بخصوص السير والنظر فى ملكوت الله سبحانه وتعالى. على أن أهم مباحث الفلسفة فى نظرى هو النظر فى العلاقات القائمة بين الإنسان والطبيعة؛ وبين الفرد والمجتمع؛ والفلسفة نابعة من التعجب وحب الاستطلاع والرغبة فى المعرفة والفهم. بل هى عملية تشمل التحليل والنقد والتفسير والتأمل. ولعل هذا النوع من الفكر البحثى وغيابه عن حياتنا اليومية كما سبق أن ذكرت هو وراء قصورنا فى تلمس الموجودات وغياب الإبداع والاستكشافات ومشاركة الأمم المتحضرة والمتقدمة فى صناعة مستلزمات الحياة الحديثة. وتاريخ الفلسفة موغل فى القدم؛ فقد عاش رواد الفلسفة الغربية العظام؛ فى اليونان القديمة فى مطلع السنوات الخمسمائة الأولى قبل الميلاد، وقد حاول الفلاسفة الأوائل أن يكتشفوا التركيب الأساسى للأشياء؛ وكذا طبيعة العالم والواقع.

وكان الناس فى استفسارهم عن مثل هذه المسائل؛ يعتمدون إلى حد كبير على السحر والخرافات وأصحاب الخبرة، لكن فلاسفة اليونان اعتبروا هذه المصادر من المعرفة غير موثوقة؛ عوضًا عن ذلك؛ التمسوا الأجوبة عن تلك المسائل بالتفكير ودراسة الطبيعة. وللفلسفة أيضًا تاريخ طويل فى بعض الثقافات غير الغربية؛ خصوصًا فى الصين والهند. ويرجع عدم التبادل بين الشرق والغرب فى ميدان الفلسفة إلى صعوبات السفر والاتصال بالدرجة الأولى؛ مما جعل

الفلسفة الغربية تتطور على العموم بصورة مستقلة عن الفلسفة الشرقية. إن الفكر الفلسفى ـ كما سبق أن أوضحت ـ جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان؛ مثلًا ما من أحد من غير المؤمنين تقريبًا إلا وقد وجد نفسه بين الحين والآخر محتارًا أمام أسئلة يغلب عليها الطابع الفلسفى من نوع: مامعنى الحياة؛ هل كان لى وجود قبل ميلادى؟ هل من حياة بعد الموت؟؛ أما المؤمنون فقد تعرض لهم هذه الأسئلة ذاتها؛ ولكنهم سرعان ما يجدون الإجابة عنها فى كتب «سماوية» أنزلها الله عبر رسله وأنبيائه. ولمعظم الناس نوع من الفلسفة حيث نظرتهم الشخصية إلى الحياة؛ وحتى الإنسان الذى يعتقد أن الخوض فى المسائل الفلسفية مضيعة للوقت؛ تجده مع ذلك يولى اهتمامه لكل ماهو عظيم وذو شأن وقيمة. يستطيع الإنسان بدراسة الفلسفة؛ أن يوضح جوانب الغموض فى ما يواجهه من مسائل وأفكار؛ فيدفعه ذلك إلى التفكير فى المسائل الأساسية؛ ويصبح قادرًا على دراسة آراء الفلاسفة القدامى؛ لكى يفهم لماذا فكروا على النحو الذى فكروا فيه؛ وأى أثر يمكن لأفكارهم أن تحدثه فى حياته. كما أن العديد من الناس يجدون فى قراءة آثار كبار الفلاسفة خصوصًا كبار الكتاب منهم. كما أن للفلسفة تأثيرًا كبيرًا فى حياتنا اليومية؛ وحتى فى اللغة التى نتحدث بها فنصف الأمور لعدة مناحى فكرية مختلفة وعلوم فلسفية تتفرع فى جميع جوانب حياتنا؛ وللتعرف أكثر عليها؛ سوف نستعرض بعضًا من هذه المناحى والعلوم الفلسفية؛ مع الوضع فى الاعتبار إننا هنا لا نستفيض فى دراسة الفلسفة؛ ولكن لإعطاء فكرة عامة للقارئ عن مدى أهميتها فى تطوير العقل العربى.

١ ـ ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا)

وهو علم يدرس الواقع والوجود من حيث طبيعتها الأساسية؛ كما يدرس ماهية الأشياء. ومن الباحثين من يقسم علم ما وراء الطبيعة إلى ميدانية: علم الوجود وعلم الكون، فعلم الوجود يدرس الموجودات؛ أما علم الكون فيدرس الكون الطبيعى ككل؛ وعلم يقصد به ذلك الفرع من العلوم الذى يدرس نظام الكون وتاريخه ومستقبله.

٢ ـ نظرية المعرفة

هدفها تجديد طبيعة المعرفة وأساسها ومجالها، كما تستكشف الطرائق المختلفة المؤدية إلى المعرفة وجوهر الحقيقة والعلاقات بين المعرفة والإيمان. والمعرفة تنقسم إلى قسمين: القبلية والتجريبية. القبلية تعني التوصل إلى المعرفة القبلية بالتفكير من غير أن نستعين بالتجربة، والوصول إلى هذا استنتاج مقبول بمجرد عملية فكرية. أما التجريبية فهى المعرفة التجريبية فتعتمد على الملاحظة والتجربة.

٣ ـ المنطق

يتناول بالدراسة مبادئ وطرائق المحاكمة العقلية، فهو يستكشف كيفيات التمييز بين المحاكمة القويمة والمحاكمة السقيمة. ويسمى المثال المستخدم في المحاكمة البرهان أو الاستدلال. يتمثل البرهان في جملة من الحجج تسمى مقدمات، وهذه تقترن بحجة أخرى تسمى النتائج التى من المفروض أن تستند إلى المقدمات أو تنبثق عنها. إن البرهان القوى يكون سندًا للنتائج، بعكس البرهان الضعيف، ويوجد نوعان أساسيان من المحاكمة الفعلية، يسمى أحدهما الاستنتاج والآخر الاستقراء.

٤ ـ الأخلاق

لها علاقة بسيرة الإنسان وشخصيته وقيمه، فهى تدرس طبيعة الصواب والخطأ، وتميز بين الخير والشر. فالأخلاق تستكشف خصائص العدل والمجتمع العادل، وكذلك واجبات الإنسان نحو ذاته ونحو غيره ونحو المجتمع. تطرح الأخلاق أسئلة عديدة منها: ما وجه الصواب في العمل الصائب؟ وما وجه الخطأ في العمل الخاطئ؟ وما الخير وما الشر؟ وما القيم الخاصة بالحياة؟ قد تبرز المشكلات في مجال الأخلاق، لأننا كثيرًا ما نجد صعوبة في إدراك مايلزم القيام به. وفي العديد من الحالات تتعارض واجباتنا. أو تبدو لنا غامضة فصلًا عن كون الناس كثيرا ما يختلفون حول ما إذا كان عمل من الأعمال أو مبدأ من المبادئ صائبًا أو خاطئًا من الناحية الأخلاقية.

أما وجهة النظر المسماة بالنسبية فتتحول: إلى الصواب والخطأ كلاهما مرهون بنوعية الثقافة المعنية. فما هو صائب في مجتمع قد يكون خاطئًا في مجتمع آخر. هذه النظرة تعتمد على المجادلة؛ لذلك توجد معايير أساسية يمكن بموجبها أن نحكم بأن ثقافة ما على صواب أو على خطأ. أما وجهة النظر المسماة بالموضوعية فتدعى أنه توجد معايير موضوعية للصواب والخطأ يمكن اكتشافها وانطباقها على أى إنسان. أما وجهة النظر المسماة بالذاتية فتقول: إن كل المعايير الأخلاقية ما هى إلا مسائل لها علاقة بالذوق أو الرأي.

٥ ـ علم الجمال

وهو يبحث في الإبداع، وكذلك في المبادئ التي يقوم عليها الفن والجمال، كما أنه يدرس أفكارنا ومشاعرنا ومواقفنا حينما نرى ونسمع ونطالع شيئًا جميلًا يتمثل في الحياة كالأثر الفني، مثل الرسم أو السيمفونية أو القصيدة أو غروب الشمس أو غيرها من الظواهر الطبيعية،

وعلم الجمال يستقصى الخبرة التي اكتسبها من يمارس بعض الأنشطة المختلفة مثل الرسم بأنواعه المختلفة والتمثيل السينمائي والمسرحي.

ويتطابق علم الجمال أحيانًا مع فلسفة الفن التي تبحث دائمًا في طبيعة الفن ومجريات الإبداع الفني وطبيعة التجربة الجمالية ومبادئ النقد. لكن ميادين تطبيق علم الجمال أوسع، حيث تشتمل على الأعمال الفنية التي أبدعها الإنسان، وكذا مظاهر الجمال الملحوظة في الطبيعة. ويمكن إدراك علاقة علم الجمال بالأخلاق والفلسفة السياسية من خلال الأسئلة التالية: أي دور ينبغي أن يؤديه الفن والجمال في المجتمع والناس وفي حياة الفرد، وكيف يمكن تحسين ذوق الإنسان في مجالات الفن؟ وكيف ينبغي أن نعلم الفنون في المدارس؟

بعد هذا الاستعراض السريع لعلوم الفلسفة وفوائدها الجمة للعقل الإنساني، يمكن معرفة سبب تردي أحوالنا وتواضعها في ميادين كثيرة. قصدنا دون البلوغ فيها إلى مستويات مقبولة. ويمكن معرفة سبب التضاد والتصادم والقصور في بعض مناهج الدراسة في المدارس العربية ومقرراتها.

ويمكن أيضًا معرفة سبب عدم اهتمامنا بظواهر الطبيعة ومناطق البيئة التي حولنا. والسبب هو غياب الفلسفة أو تغييبها عن مدارسنا ومعاهدنا العلمية، وعن حياتنا اليومية علي وجه العموم... العقلانية وجدل الفلسفة والدين: إن العلاقة الجدلية القديمة القائمة بين الفلسفة والدين كانت دائمًا تدور وتناقش تحت مفهوم العقلانية. والعقلانية اقتراب فكري بحسب المجال: نظرية المعرفة، الدين، علم الأخلاق، المنطق، العلم الطبيعي والرياضي، كما سبق أن أوضحنا.

لكن الاستخدام الأكثر شيوعًا للكلمة يتعلق بنظرية المعرفة واقتراب التعامل مع الدين (وحياة ونبوة) كمصدر للمعرفة.

وإذا كانت الفسلفة تهدف إلي معرفة أصل الوجود وغايته ومعرفة سبيل السعادة الإنسانية في العاجل والآجل، فإن المطلبين اللذين يشكلان موضوع الفلسفة بقسميها النظري والعلمي هما كذلك موضوعا الدين بمعناه الشامل للأصول والفروع. ويهدف الدين أيضًا إلى توضيح الطريق الذي يرى فيه سلامة البشرية في التعايش معًا، والفلسفة تحاول ذلك وإذا كانت الفلسفة هي الأم التي تفرعت عنها سائر العلوم الجزئية، فإنها من ناحية أخرى قد شبت وترعرعت في حضن الدين. فقد كان الارتباط بين كل من الفلسفة والدين ارتباطًا وثيقًا منذ القدم، حيث

كان التفكير الفلسفي ممتزجًا بالتفكير الديني، وقد لعبت الأساطير الدينية القديمة دورًا مهمًا في التمهيد لنشأة التفكير الفلسفي، وهذا يفسر لنا ما تعنيه تلك العبارة المشهورة القائلة: «إن الفلسفة هي بنت الدين وأم العلم» من حيث إن الدين هو الذي مهد لها في حين أنها هي التي أنتجت العلم.

وقد نشأت الفلسفة عندما اطمئن الإنسان إلى قدرة العقل على المعرفة، وأدى تطور التفكير الفلسفي إلى استقلال الفلسفة عن الدين، ولكن هذا الاستقلال لم يكن استقلالا تامًا، فالإنسان يمثل وحدة واحدة، وليس من السهل التفرقة الحاسمة في داخل هذه الوحدة بين الفيلسوف والمؤمن الحق، ووضع حدود فاصلة بين هذين المجالين. فكلاهما سيؤثر من غير شك في الآخر إيجابًا أو سلبًا بطريق مباشر أو غير مباشر، بوعي أو بغير وعي. وإذا كانت الفلسفة في العصور الحديثة قد استقلت عن كل سلطة دينية، فليس يعني ذلك أنها استقلت عن كل سلطة دينية، فليس يعني ذلك أنها كانت كذلك دائمًا أو أنها تخلصت تمامًا من كل مسحة دينية. فإن من يغوص في أعماق كل فلسفة يستطيع أن يتبين في النهاية ما فيها من عناصر دينية.

إن الفلسفة قد نشأت في جانب منها عن الدين. فلا يجوز لنا أن نسقط من بين المذاهب الفلسفية كل الفلسفات التي امتزج فيها النظر العقلي بالإيمان الديني، وإذا كانت الفلسفة تتميز بالاعتماد على العقل فإنه لا شك في أن المعتقد الديني للفيلسوف غالبًا ما يتسلل إلى صميم تفكيره العقلي، والأمر الذي لا يجد فيه مؤرخ الفلسفة أمامه مفرًا من الاعتراف بأن تفكير الفيلسوف قد صدر في جانب منه عن أنوار الوحي، كما يقول الدكتور محمود حمدي زقزوق في نقاشه عن العلاقة بين الفيلسوف والدين.

الدين الصحيح يحث على التفلسف

وإذا كانت غاية كل من الفلسفة والدين واحدة، فلا يعني اختلاف طريقيهما إلى الوصول إلى هذه الغاية وجود تعارض أساسي أو حقيقي بينهما. فالعقل الذي هو أداة الفلسفة هبة من الله للإنسان ليميز ويسير مسترشدا بهديه. ومن ناحية أخرى فإن الوحي أيضًا هبة من الله للإنسان لهدايته وإرشاده في دنياه وأخراه. وإذا كان المصدر واحدًا فلا يمكن أن يكون هناك تناقض أو نزاع بين الوحي الذي هو من الله والعقل الذي هو من الله أيضًا، والذي يصفه الغزالي بأنه نموذج من نور الله، كما سبق أن ذكرت.

فكل من العقل والوحي يكمل الآخر، ولا يمكن وضع المسألة على أساس أن الإنسان في موقف الاختيار بين الدين والفلسفة أو بين الوحي والعقل، فالإنسان في حاجه إليهما معًا.

والدين الصحيح لا يمنع العقل البشري من التفلسف، ومن حقه في الفهم والتفكير في ملكوت الله، وإنما يدفعه إلى ذلك دفعًا. وإذا كانت الوظيفة التي خلق الله من العقل من أجلها هي التأمل والتفكير فإن تعطيل العقل عن أداء هذه الوظيفة يعتبر تعطيلًا للحكمة التي أرادها الله من خلق العقل، مثلما يعطل الإنسان حاسة من الحواس التي أنعم الله بها على الإنسان عن أداء وظيفتها التي خلقت من أجلها.

وإذا كان الدين الصحيح لا يعوق الإنسان عن التفلسف، بل يدفعه إلى ذلك دفعًا، فإن الفلسفة الجادة من ناحية أخرى لا تعادي الدين ولا تغفل مسائل الدين أو تتجاهلها، فإن فعلت ذلك كان هذا دليلًا على هروبها من المشكلة، وكانت كالنعامة التي تدفن رأسها في التراب.

فالدين حقيقة واقعة، والفلسفة الجادة تضع الحقيقة الواقعة كلها في اعتبارها، ورمي الفلسفة بأنها تؤدي إلى الإلحاد أو الزندقة اتهام لا أساس له. فالفلسفة الصحيحة لا تؤدي إلى الإلحاد ولكن الوقوف في منتصف طريق التفلسف قد يجرف الإنسان إلى تيار خاطئ.

يقول فرنسيس بيكون بصدد اتهام معاصريه له بالإلحاد: «إن القليل من الفلسفة يميل بعقل الإنسان إلى الإلحاد، ولكن التعمق فيها ينتهي بالعقول إلى الإيمان، ذلك لأن عقل الإنسان قد يقف عندما يصادفه من أسباب ثانوية مبعثرة، فلا يتابع السير إلى ماوراءها، ولكنه إذا أمعن النظر فشهد سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها لا يجد بدًّا من التسليم بالله».

التوفيق بين الفلسفة والدين

إن حقيقة الأمر بعد البحث المتأني في تاريخ جدلية الفلسفة والدين، فيتضح أنه ليس هناك في حقيقة الأمر صدام أو تعارض حقيقي بين الدين كدين وبين الفلسفة كفلسفة فقد دعا ذلك العديد من الفلاسفة إلى الكشف عن هذه الحقيقة التي حجبتها في فترات مختلفة تجاوزات خارجية ليست من طبيعة الفلسفة ولا من طبيعة الدين، فقد حدثت صراعات بين الفلاسفة واللاهوتيين نتيجة لتعصبات لا شأن لها بجوهر الفلسفة أو جوهر الدين ومن استقراء تاريخ العقل مع الإيمان يتبين أنه لم يحدث بينهما نزاع أدى إلى استبعاد العقل واضطهاد أهله إلا إذا اجتمع أمران:

أولهما: أن تكون لدى رجال اللاهوت سلطة تمكنهم من اضطهاد العقل وأهله، فإن أعوزتهم السلطة قنعوا بالغيبة وانتقموا بالنميمة.

وثانيهما: أن يكون هناك عقل يجرؤ على اقتحام «المنطقة الحرام» التي حرمها رجال اللاهوت وارتياد آفاقها والانتهاء منها إلى اكتشاف مجهول أو إنكار مألوف. وهكذا يجر العقل على نفسه بفضل جرأته ويقظته غضب واضطهاد خصومه. وبغير اجتماع هذين الأمرين لا يقوم نزاع أو صدام بين العقل والإيمان.

ومن ذلك يتضح أن الأمر في الواقع ليس أمر نزاع حقيقي بين الدين والفلسفة، وإنما هو نزاع كان وسيظل نزاعًا بين اللاهوتيين والفلاسفة يشتد في بعض العصور حتى يصل إلى حد الاضطهاد، وتخف حدته أحيانًا أخرى حتى يصل إلى حد الوفاق، وهذا النزاع التقليدي بين الدين والعقل أو بين الدين والعلم نزاع لا مكان له في تعاليم الإسلام، كما سيتضح لنا ذلك من خلال حديثنا فيما بعد عن الإسلام والفلسفة.

وقد فطن الإمام الغزالي إلى أن الحملة على العقل من حيث هو عقل في مقابل الشرع تقوم على أساس خاطئ، وفي ذلك يقول: «فاعلم أن السبب فيه» أي إنكار ورفض العقل «أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات، وهو صفة الكلام. فأما نور البصيرة الباطنة التي بها يعرف الله تعالى، ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه.. وإن ذم فما الذي بعده يحمد؟ فإن كان المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع؟ فإن علم بالعقل المذموم الذى لا يوثق به فيكون الشرع أيضًا مذمومًا. ولايلتفت إلى من يقول: إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لا بالعقل؛ فإنا نريد بالعقل مايريده بعين اليقين ونور الإيمان؛ وهى الصفة الباطنة التى يتميز بها الآدمي عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور. وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ «. فهذه «التخبيطات «أو الجدليات تجد طريقها ـ فى نظره عند إناس كل همهم البحث عن الحقائق من الألفاظ؛ ولهذا يتنكبون طريق الحقيقة. أما فى الفلسفة المسيحية فقد حاول كبار مفكريها التوفيق بين النظر العقلى والمعتقد الدينى. ومن هنا رأينا القديس توما الأكوينى يذهب إلى القول بأن العقل يسبق الإيمان والإيمان يسبق العقل وأنا أومن لكى أتعقل «ومعنى ذلك أن على الإنسان قبل أن يسلم با لإيمان أن يختبره بعقله وعندما تتأكد لديه صحة العقيدة الدينية التى اعتبرها من حيث المبدأ؛ فإنه يتحتم عليه أن يسلم مجرد تسليم بكل ما تتضمنه من أسرار أو أمور تعبدية. ثم تأتى بعد ذلك مرتبة التعقل الفلسفى للدين؛ وفيها ينتقل المرء من مجرد الإيمان البسيط إلى مرتبة الفهم والتعقل للإيمان ومعتقداته. ونستنتج من كل ما سبق إلى أن الاضطهادات التى ارتكبت باسم الدين ضد الفلسفة كفلسفة وكنظر عقلى خالص ليست من الدين فى شىء؛ لأن عدم استخدم

العقل فى النظر إلى الأمور تعطيل لحكمة الله من خلق العقل، ومن ناحية أخرى فإن الحملات أو التهجمات من جانب الفلاسفة ضد الدين كدين ليست من الفلسفة الصحيحة فى شيء ولا يقرها العقل السليم.

العقل بين الشرع والفلسفة

نختم هذا الفصل ونقاشه عن أثر الفلسفة على العقل العربى؛ وابتعادة عنها بالحديث عن قضية العقل بين الفلسفة والشريعة الإسلامية؛ لأن هذه هى إحدى أقوى مسببات التخوف من الخوض فى العلوم الفلسفية. فإننا إذا أردنا مقارنة ومقاربة قضية العقل بين الفلسفة والشريعة؛ فيجب أن نفرق بدقة بين مفهوم العقل فى الشرع ومفهومه فى نظرية المعرفة فى المدارس الفلسفية. إن الإسلام لا يرفض العقلانية بكل أنواعها ومستوياتها كما سبق أن أوضحنا؛ إنه فقط يرفض العقلانية الجذرية (أو العقلانية الأصولية إذا جاز التعبير، كما ذكر الدكتور محمد الخشت فى نقاشه حول قضية جدل الفلسفة والدين) والتى ترفض أى مصدر للمعرفة غير العقل، لكنه يدعو إلى التعقل المبنى على برهنة محكمة كمرحلة من مراحل التفكير من أجل الوصول إلى الحقيقة. ويتجلى هذا بوضوح فى دعوة القرآن الكريم للتفكير؛ ومخاطبته لأهل العقول، والقرآن نفسه قد سلك طريقة البرهنة المباشرة؛ إذ أن القرآن هو الرسالة وهو نفسه البرهان عليها من حيث كونه معجزًا لا يمكن الإتيان بمثله؛ فهو برهان مباشر.

كما أن القرآن يستخدم براهين جزئية على قضاياه الجزئية فى كل مرة يطرح فيها قضية من هذا النوع؛ ويدعو المتلقى لفحص هذه البراهين على أسس عقلانية فحصًا موضوعيًّا محايدًا؛ لدرجة جعلت بعض المحللين يقولون بوجود تشابه بين الاستدلالات القرآنية والاستدلالات المنطقية؛ مثل الإمام الغزالى فى كتابه: «القسطاس المستقيم» الذى بين فيه أن أصول القياس العقلى وأشكاله مستخدمة فى الاستدلال القرآنى. وهناك كذلك من المحللين من يقول بوجود تشابه بين المادة القرآنية بخاصة وبين الفلسفة العقلية فى انتهاج طريق البرهان. وعلى سبيل المثال يقول د. محمد عبد الله دراز «إن أفضل ما يدل على التشابه بين المادة القرآنية بخاصة؛ وبين الفلسفة ـ أن نلحظ أن القرآن حين يعرض نظريته عن الحق؛ وعن الفضيلة لا يكتفى دائمًا بأن يذكر بها العقل ويثير أمرها باستمرار أمام التفكير والتأمل، وإنما يتولى هو بنفسه التدليل على ما يقدم؛ ويتولى تسويغه». ويطرح القرآن قضايا تستند إلى حجية العقل المنطقى؛ مثل إثبات أن الله تعالى واحد؛ ولوكان له شريك لفسدت السموات والأرض، وهنا يرتب القرآن قضية شرطية، كما دعا القرآن الكريم إلى استخدام البرهان: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ فالعقل حجة وسند

يعجز منكر القرآن عن استخدامه بشكل محكم ضد قضايا القرآن، وقد أبطل القرآن ادعاء بعض الفلسفات والأديان التى تقول بأن الإيمان ميدان بعيد عن العقل؛ ولابد لمن يريد الإيمان أن يعطل عقله أو يتبع ماعليه الآباء والأجداد، ولقد أكد القرآن الكريم حجية العقل؛ وأشار إلى العقل والتدبر والتفكر بمترادفات مختلفة عشرات المرات؛ ومن مترادفات العقل: الحجر؛ ويسمى العقل حجرًا لكونه يمنع صاحبه من ارتكاب ما يقبح وتضرعاقبته. وأيضًا من أسماء العقل: النية؛ والجمع نهى. وعند ابن منظور: النهى: العقل ـ يكون واحدًا وجمعًا؛ والنهية: العقل بالضم؛ سميت بذلك لأنها تنهى عن القبيح؛ وفلان ذو نهية أى عقل ينتهى به عن القبائح ويدخل فى المحاسن.

وقد سعى الفلاسفة العقلانيون من المؤمنين للتوفيق بين الدين والعقل، مثل ابن رشد الذي يقول في كتابه «فصل المقال» وكان الشرع قد نادى إلى اعتبار الموجودات، وحث على ذلك.. فأما ان الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل، وتطلب معرفتها به، فذلك بين في غير آية من كتاب الله تبارك وتعالى. وإذا تقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات، واعتبارها، وكان الاعتبار ليس شيئا أكثر من: استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه.. وإذا كان الشرع قد حث على معرفة الله تعالى وسائر موجوداته بالبرهان، كان من الأفضل، أو الأمر الضروري، لمن أراد أن يعلم الله تبارك وتعالى وسائر الموجودات بالبرهان، أو أن يتقدم أولًا فيعلم أنواع البراهين وشروطها..».

وقد تنبه أهل السُّنَّة لمدى مخالفة فهم الفلاسفة اليونان لفهم الإسلام للعقل، ولا سيما ابن تيمية، حيث بيَّن فساد آرائهم وفساد منطقهم، وقام بتنفيذ هذا المنطق. والملفت للنظر أن المناطقة القريبين المحدثين ساروا على طريق ابن تيمية نفسه في رفض المنطق الأرسطي. وقد بين ابن تيمية انهم يصيبون في الحساب والطبيعة وكثير من علم الفلك، لكن فلاسفة المسلمين كما وصفهم وقلوبهم أعرف، وألسنتهم أنطق، وذلك لما عندهم من نور الإسلام «وإجمالًا نقول إن الإسلام فى صحيحه لم يحرم الفلسفة واستخدام العقل والفكر؛ ولا يرفض العقلانية كما سبق أن أوضحت؛ ويرفض موقف الذين لا يستخدمون عقولهم بل ويشبههم القرآن بالأنعام؛ أى أن العقل هو مناط الاستخلاف وميزة الإنسانية وسمة البشرية؛ وعليه فعلينا كعرب وكمسلمين أن نبدأ فى التفكر واستخدام عقولنا بدون خوف؛ وأن ننقد كل ما حولنا بعين العقل والمنطق؛ فالنقد ليس جريمة أو خطيئة؛ بل إنه نعمة وخطوة أولى نحو تحرير العقل من غياهب الظلام، الذى مازال يتيه بها وبدروبها المظلمة؛ والتفكير واستخدام العقل هو جسر هذا المجتمع الذى سوف يعبر به نحو الرقى والحضارة والتقدم الذى كنا نتغنى به يوما من الأيام عندما استخدم كبار مفكرين فى عصور النهضة الإسلامية عقولهم مما أدى بهم إلى قيادة الحضارة الإنسانية حينذاك.